

بيروت « با ان برت » كما اثبت ذلك حضرة الاب لامنس في كتابه عن آثار لبنان (٢٢٢:٢)

فيلوح من كل ما سبق ان بيروت قد حلت منذ قديم الزمن محلاً ممتازاً وان اصولها راقية الى الازمنة المظلمة حيث التاريخ كان مختلطاً بمخرافات البشر وان اعتبرت ضواحيها الدخلة في مملكتها وجدت ما يؤيد امر قديمها . ولاسيا ذلك النصب الذي حفره رعميس الثاني المعروف عند اليونان باسم سيسوستريس دلالة على حلوله في سواحل فينيقية وهو اثر جليل في الصغور المشرقة على نهر الكلب حيث ترى صورته قائماً بإزاء إله « راع » ساجداً له وتاريخ الاثر في السنة الرابعة للملكة

(لها بقية)

خطر جسم

او

اللغة العامية

بقلم حضرة الاب انطون مالماني اليسوعي

فاجأتنا مقالة مستغرّبة ادمشتنا تنبأ فيها كاتبها بخطر جسم يهدّد اللغة العربية الفصيحة . بل قلّ العربية عامّة . لان اللغة الفصيحة ليست اللغة التي يحشوها الكاتب الفاظاً وحشية غير مأنوسة لا يدرك معناها سوى من حفظ الكلام المرويس . بل هي اللغة التي تتضمّن الفاظاً تفهمها العامّة وتعملها سليمة من كل شائبة خطأ ومن الاغلاط المخالفة للقواعد العربية في عبارات واضحة وتراكيب غير معقّدة تؤدّي المعنى المراد

والذي يهدّدنا بهذا الخطر الغير المنتظر اي اندثار اللغة الفصيحة وتغلب العامية

عليها هو احد الكتاب الذين نجلهم وقد عودنا على ذوق صحيح وكلام فصيح . ولا ندري كيف انتقل بقتة من حر الى قر ومن روضة الى بر فالتخدع بالسراب

نشر حضرة الاب الفاضل الحوري ماريون غرض مؤلفاً جمع فيه ما كانت جادت به قريحته من المقالات والمقاطع نثراً ونظماً وطبع سابقاً مترقفاً في المجللات والجراند . وضم الى هذه المجموعة مقالة في ٢٦ صفحة تردد كل صفحة منها النعمة ذاتها . ويظهر ان حضرة ابتكر المقالة مؤخرأ فسأها « حياة اللغات وموتها » وتكلم فيها عن « اللغة العامية » . ونعت هذا المقال بأنه « بحث فلسفي لغوي اجتماعي » . فلو كان حذف اللفظين « فلسفي اجتماعي » لكان اقرب الى الضواب . لانه ليس في المقالة ما يُشتم منه رائحة البحث الفلسفي والاجتماعي . كأن الإكثار من النعت يُكسب البحث أهمية ليست فيه

قال حضرة : « هذا بحث جديد لا نذكر ان احداً خاضه قبل الآن مع ما هو عليه من خطورة الشغل في شواذ اللغات . » . وشبابها وشيوخها وانصارها لا ريب في ان ابحاثه تروى في حوزة عريضة عريضة لم يدر فيه احد من العرب . لا خطورة شأنه لكن - سوء من افسد في عصرنا . فان حضرة يؤكد لنا انه لا يتم الا بعد بضعة اعصر . وهذا القول ازال خوفنا على العربية الفصيحة وهذا روعنا . فيمكننا ان نداوم بدون قلق على اتقانها

ثم ان حضرة الكاتب لا يلتفت في بحثه الى تاريخ اللغة ونشورها وفترتها وشبابها . بل نظر الى اندثارها وفنائها فقط . ولا يخفى ان البحث عن اللغة يتطلب من الكاتب ان يتكلم عن كل اطوار حياتها لتعلم مقدرتها على الثبات في الحياة او ضعفها الاثر بها الى الهلاك . لكن هذا البحث يقتضي من الكاتب علماً واسعاً في العربية وتاريخها وفي اللغات النامية القريبة منها

ان السبب الذي اوقع حضرة الكاتب في الخطأ هو انه افترض في العربية لغتين الواحدة فصيحة والاخرى عامية . وهذا ليس بصحيح . لان اللغة العربية هي واحدة . انما ما يسته حضرة لغة عامية فليس في الحقيقة الا الالفاظ والعبارات التي يستعملها الكتاب والادباء . فالعامية تستعملها ممزوجة بالاغلاط . اما المتأذبون فيستعملونها مهذبة

خالية من الخطأ المخالف لقواعد اللغة

وللأمانة أيضاً لهجات في الجركات عند التكلم تختلف باختلاف البلدان شرقاً وغرباً وقبلاً وشمالاً وجبلاً وسهلاً ومُدناً وقُرى . ولا تكاد هذه الاختلافات تخصي ولا قاعدة لهذه الاغلاط واللهجات تدبر العامة بموجبها . وقد اقر بذلك حضرة الكاتب اذ قال (ص ١٨٩ في آخرها) : « المراد باللغة العامية اللغة التي يُنطق بها ليس غير والتي لا آداب لها خلافاً للغة الفصحى » . فهذا دليل واضح على ان اللغة العامية ليست لغة قائمة بذاتها اذ لا قواعد لها ولا تتميز عن اللغة الفصيحة الا بما يحالطها من الاغلاط (١)

وتستعمل العامة الفاظاً اجنبيةً او الفاظاً لا وجود لها في الامة اللغوية . وذلك ما لجلها اللغة . وأما لعدم معرفتها ما يقابل الالفاظ الاجنبية في العربية . وهذا وان كان لا يُستحسن لا يمس سلامة اللغة وصحتها لانه يسير بالنسبة الى غنى اللغة العربية . فهو كيسر من الماء في اناء خمر عتيقة لا يؤثر في طيبها ولا في رايحها . ولا مانع من ان يقتبس ايضاً الكتاب والادباء الالفاظ الاجنبية مع مراعاة بعض الشروط خلافاً لما كتب حضرة صاحب المقالة اذ قال (ص ١٩٢) :

١ « فاذا قيل مثلاً : « اجا هلق ولاد من المدرسه حظن قليل في هالدينه وقالولر لمسن فكون عن هالمجته » كان كلاماً عامياً لانه مشحون بالاغلاط . الا ان جميع الفاظه يتسمها الادباء فيقولون : جاء في هذا الوقت اولاد من هذه المدرسة حظهم قليل في هذه الدنيا وقالوا لمسلمهم فكونهم عن هذه المجلة » فيكون كلامهم خالياً من الاغلاط فيصح اقبحه الجميع حتى صغار الترويين الذين لم يدخلوا مدرسة ولم يسروا بشي من العلوم وهكذا القول عن البارة التي ذكرها حضرة كاتب المقالة تبياناً لقدرة اللغة العامية على التأثير في القلوب وهي : « فرنسا ما في متلا بالدنيه كلاً » فاستخرج ان هذه البارة العامية اثرت اي تأثير في الحاضرين في كنيبة القديس بيجس المارونية . « نهفت تلك الجماهير العديدة في وسط الكنيبة حثاف الهامة والفرح وصفقوا تصفيقاً ارجحت له ارجاء . تلك الكنيبة ارجعاً » وعندنا انه لو قيلت هذه البارة هكذا : « فرنة ما مثها في الدنيا كلاً » لأحدثت التأثير ذاته لان التأثير نتج لا عن اللهجة العامية لكن عن سني البارة والظروف . فاذا كانت البارة المهدبة تزدي المعنى ذاته وبالاغلاط اذاً فاذا دفع حضرة الكاتب الى ان يفضل البارة المحشوة بالاغلاط على المهدبة . وما القادة من ذلك سوى التحريض على ارتكاب الخطأ والحط من الآداب . هذا سر قاض لا يمكننا فهمه

« ان اللغة العامية يسهل عليها اقتباس الكلمات ايّا كان مصدرها ولو اجنبياً . . . اما اللغة الفصحى فلا وجه لها الى الاعتناء . الا في ان يتواطأ ارباب اللغة فيها على وضع الفاظ جديدة او نحتها من جذر اللغة نفسه . وان في ذلك من الصعوبة ما فيه »

أفتريد حضرة ان يلتقط التبر على سطح الارض وان تُقطف الزهور والثمار في الطرقات او ان نصادق على مثل هذه الجمل التي تتلفظ بها بعض الارانس المتفرنجات وقد طرقت آذاننا « علمت له بريزانتية » وما شاكل . فلا يغناء اللغة بالفاظ جديدة لمعانٍ وحاجات حديثة لا بد من الوقت والصبر والحكمة والبحث وتواطؤ الكتاب على استعمالها ومصادقة جمية الآداب او جمهور الادباء . اللهم ان لم يجدوا ما يقابلها في العربية او لم يقدروا على نحت لفظ لها من جذر كلمة عربية . اّما اذا تركنا للامة إغناء اللغة كما يرتأي حضرة عرضنا العربية للفساد والهجنة وكانت الفوضى . هذا ما يرضى به حضرة كاتب المقالة ويجرح عليه ونأباه نحن وننتعرض له . فهو يسعى لالغطاط اللغة ونحن نسعى لصيانتها وسلامتها وترقيتها . ولا ريب في ان الادباء في جميع البلاد العربية يرون رأينا . خلافا لما قاله حضرة اذ كتب (ص ١٨٦) :

« نحن والذين هم اعداء ان نعلموا اننا - انظر الى الذين هم - ان حدود آداب الدول يتأثرون على هذه المقالة - ان يبدروا على رأينا ويبدروا مسحة ماجاء فيها . بل قد تدفعهم الحمية مناصرتنا في تميز اللغة العربية العامية . فيكون لهم ولنا في التاريخ الذي صفحة جيدة يقرأه الآتون بالشكر والاعجاب » (١)

هذا ما نرتب به كل الارتباب بل نتحقق خلاقه فتكون مقاله صفحة سوداء يقرأها اهل زماننا بالدهشة والاندھال ولا يذكرها الآتون بعدنا البتة لانها تقوص كالخبر في بحر النسيان

ويا حبذا لو كان صاحب المقالة خاض البحث ليين ما يشوب اللغة العامية من الاغلاط عوضاً من ان يستحسنها . وحبذا لو حرض العامة وخاصة طلاب العلم على اتقان اللغة وتحسينها وتجنب ما يحيط من قدرها ويشينها لكان خدام وافاد وكنا له من السامعين الشاكرين . لكنّه تكلم عن اللغة العامية ليرفع منارها ويعلّي شأنها على

(١) يذكرنا هذا الكلام بالرجل اليوناني الحامل الذكر الذي احرق مبد دلفوس لينشر صيته في الآفاق عند الناس

ما فيها من الشوائب فيُضغف الرغائب ويثبط عن العمل ويدفع الى الكسل . ساححُ الله . لكتنا في يقين ان مقالته تكون ضربة في الماء . ونفخة في الهواء . لا تجديه ألا المنا .

وقد حاول حضرته ببراهين -طعية وذلك باللغة الفصيحة لا العامية (وكان من الواجب عليه استعمالها ليقرن القول بالفعل) فأجهد نكروه ليبين اندثار اللغة العربية الفصيحة بتغلب اللغة العامية عليها . والعجب كل العجب انه يجرّر ذلك وهو يشاهد رأي العين والجميع يشاهدون معه نهضة عظيمة التي نهضتها العربية من نحو نصف قرن . نرى المدارس تعمرُ في كل الجهات . وهي غاصة بالطلّاب . وتُنشأ المجلّات والجرائد العربية وتُنشر الكتب بالئات والالوف باللغة الفصيحة وموضوعها علم الالهيات والروحيات والفلسفة والآداب العربية والروايات والتاريخ ووصف الارض وطبقاتها وعلم الهيئة والنبات والحيوان والطب وغيرها من العلوم . وذلك ليس في سورية فقط ومصر وبلاد بين النهرين وجزيرة العرب وفلسطين وسائر البلاد العربية بل في الجزائر ايضاً وتونس ومراكش والهند واميركة وهولندة وفرنسة . ونرى عامة الناس من رجال ونساء وشبان وصبايا ينصبّون بتلّيف ولذة على مطالعة هذه الكتب والنشرات . ونشاهد ما لم نشاهده في ما مضى الاوانس تُنتهى المجلات وتكتب المقالات المستعجنة في اللغة العربية الفصيحة وتواف الكتب المفيدة في مواضيع مختلفة . وتخطب في النوادي وتُنشر الروايات ويُقبل الجنس اللطيف فضلاً عن الرجال على قراءتها بمسرة واعجاب (راجع ما كتبه البشير في ٢٢ ك ١٩٢٥ عن نهضة الادبيات واقبال الجمهور عليها) . أفليس كل ذلك من الادلة الباهرة على نهضة عظيمة في اللغة العربية تمّت باقل من نصف قرن . فبعد هذا المشهد الجليل ايكن لحضرة الكاتب ان يندب القوم لمناصرة اللغة العامية على انفصيحة

وقد اقرّ حضرته بان اللغة تدرّج بتدرّج الشعب اذ قال (ص ١٨٧) :

« ان كل لغة يشكّلها بها الشعب ولو كان من المسح تكون حية بجاء ذلك ان الشعب النقية والادبية فتشوبسوها وتلاشي بتلاشيها . واذا ترقي الشعب مراق الحضارة ترتت لته والمكس بالمكس . وهذا المبدأ لا ينطبق على درجة حياة اللغة فقط بل على نوما اجناً . اعني ان حياة اللغة اشبه بمراة ماذة فيها نرى حياة الشعب وجميع مبرازها . فاذا كان ذلك الشعب راقياً في الصناعة

او التجارة او الفنون الجميلة او العلوم كثرت في لغة الالفاظ والتعابير المختصة بتلك الصناعة او التجارة الخ»

هذا ما كتبه حضرة

ونحن لا نسلم بالنتيجة التي استنتجها ولا بوفرة الالفاظ الاجنبية التي تدخل اللغة العربية ونسلك مقدرتها على تحويل اللغة الفصيحة الى عامية . ولا نوافقه ايضاً في ما يدعي بان التجار والصائمين كالنجارين والحدادين وصانعي الاحذية ومن يشبههم يؤثرون في تحويل اللغة العربية كما انهم لم يؤثروا في تحويل اللغة الفرنسية من فصيحة الى عامية . ان العامل القدير على ترقية اللغة هم الكتاب والادباء . فان كثروا وكثر قراؤهم ترقى اللغة وان قلوا او انقرضوا تعقرت اللغة

ثم ان معظم الالفاظ الدخيلة محصور في فئة من الناس يستعملونها لحاجاتهم الحسوية (١) في الصناعة او التجارة او التصوير او الطب الخ . ولا ننكر ان بعض هذه الالفاظ تدخل اللغة الفصيحة لكن دون ان تؤثر في فصاحتها او تحولها الى عامية . فبهي كالطعام الذي تنتج دويد جزءاً من جسدنا

هات الان غمض ما ذكر به حذرة الكتاب اثبت ان اللغة العربية الفصيحة آتلة الى الفناء لا محالة . قال حضرة (ص ١٨٢) :

«ان كل لغة على وجه الارض ماثية ضرورة الى افناء . مما بان من المجد والكمال . وذلك لان كل حي يولد فينمو فيبلغ اشده شباب ثم يضيف فيهرم فيموت . تلك هي سنة الله في كل حي ولا يشذ عنها الا ما كان غير حي كالجماد مثلاً»

كان الجماد لا يفنى ايضاً اذ يتحول بالموامل الطبيعية الى قُتات وحُتات ودُقاق . وقال ايضاً (ص ١٨٨) : « لا بد لكل لغة من ان تموت ولو بلغت اسمى درجات

(١) صرح جده الحافيفة العلامة اطوان غريوار المعلم في المدرسة الملكية في مدينة لياج من اعمال بلجيكة في كتابه عن اللغات قال :

Beaucoup de ces expressions ne sortent pas du milieu restreint dans lequel elles ont pris naissance. Cependant un certain nombre d'entre elles passent dans la langue commune. Ce dernier phénomène s'est produit de tout temps, mais dans une mesure moindre qu'aujourd'hui (ANT. GRÉGOIRE : *Petit Traité de Linguistique*, p.106)

الكمال . فهذا لأنها حية . والموت متحتم على كل حي . « فلماذا لم يقل ايضاً عن اللغة العامية التي هي حية انها آتلة الى الاندثار والفتنا . كالنصيحة . ولكن لنسمع ما فسر به حضرة قوله ان كل لغة سائرة الى الفتنا . قال (ص ١٨٧) : « معناه ان كل لغة تتحول شيئاً فشيئاً من صورتها الاصلية . الى صورة بعيدة عنها بحيث يسع اللغويين ان يعدوا هاتين الصورتين لفتين مختلفتين لا لغة واحدة رغم ثبوت علاقة الاشتقاق بينهما . « فليست حضرة بالأمثلة ما يؤكده هو ونشكره نحن اي ان صورة اللغة العربية العامية هي بعيدة عن صورة اللغة الفصيحة بحيث تُعتبر هاتان الصورتان لفتين مختلفتين . فهذا مما لا يمكنه تأييده بها اجهد نفسه

ثم ان المبدأ الذي قرره بقوله « ان اللغة آتلة الى الفتنا . لانه متحتم على كل حي ان يموت » . هو مبدأ لا يصدق في اللغات لانه يفترض ان اللغات تحيا كالأجسام الآتلة وهذا ليس صحيحاً . فهل يمكن للشيوخ الهرم ان يدود شاباً . قول الشاعر :

اترجو ان تكون وانت شيخٌ كما قد كنت ايام الشباب
لقد غرتك نفسك ليس ثوبٌ عتيق كالجديد من الشباب

أما اللغة فتراها غالباً بعد انحطاطها لإهمال الآداب وموت الادباء . تنهض من كبوتها وتنشع بعد ضعفها وترقي بترقي الحضارة والعلوم . فاللغة لا تموت كما يموت النبات والحيوان بل يموت الشعب الذي ينطق بها . فاذا بقي الشعب العربي في الحياة تحيا لغته ويتجدد شبابها ولا تنحط بل تترقي بترقي آدابه . واذا انقرض الشعب العربي لا مسح الله وابتلعه غيره من الشعوب تموت لغته العربية . كما حدث في بلاد الاناضول حيث ابتلع الترك شعبي الارمن واليونان في غابر الزمان ففتيت او كادت لغة هذين الشعبين في تلك البلاد واخذت مكانها اللغة التركية . وهذا ما حدث ايضاً في البلاد السورية فانه لما كثرت العرب الفاتحون لها وقويت شوكتهم وصارت السلطة اليهم ابادوا اللغة اليونانية في المدن السورية واللغة السريانية في القرى فن المقرر اذاً ان اللغات لا تموت الا بانقراض الشعوب . فدام الشعب حياً فلغته هي ابداً شابة . هذا ما قرره الكاتب البلجيكي المشار اليه (١)

1) Il ne viendra plus à l'esprit de personne, de considérer les langues.

ثم ان رأي حضرة الكاتب مردود لسبب آخر. فلو كانت اللغة في نشوئها لا يمكن القول انها تتحول لكن لا من الكمال الى الانحطاط بل من النقص الى الكمال. أما اذا كانت بانمت اشدّها اي كالمها فقلما يطرأ عليها تغيير او قلما يوتر فيها. كما ان الطفل المولود حديثاً تتغير هيئته كلما ترعرع حتى لا نكاد نعرف انه هو الذي نظرناه رضيعاً ولكن متى صار كهلاً فيها تغيرت ملامحه يُعرف حالاً انه هو هو ولو صار الى الشيخوخة. هكذا اللغات فانها متى ترقّت وبلغت درجة تُذكر من الكمال وأثبتت في التأليف والكتب كالعربية والافرنسية والانكليزية والالمانية والاسبانية وغيرها فيها طرأ عليها من التغيرات الجزئية والافرازية التي لا بد منها بسبب ترقى العلوم والفنون لا يمكن القول انها تتحول وتؤول الى الفناء. ولنا مثل في اللغة الافرنسية فان عامة الشعب الفرنسي لا يستطيع اليوم ان يفهم الكتب التي نُشرت ببلقته منذ خمسمائة سنة. ولكن بعد ان ترقّت لغته وثبتت بفضل المدارس والكتب وانتشار الآداب في عامة الشعب. وقد ساعد على ذلك فن الطباعة الحديثة التي لم تبق الاية الاونفورز الحكرمة ومتوطّظها فلم يعد يحدث في اللغة تغيير الأماند. وذلك لانتهايت عمية ونية وبارية وحرية. وهكذا يقول عن الامم. فالبالغ في اياما يفهمون ما كتبه من نحو ثلثمائة سنة باسكال وفيانيون ر. -ويه وبور ر وميليون ولانورتنين وكورنيل وراسين ولابرويار وغيرهم كثيرون

وهكذا القول عن اللغة الالمانية. فانه من مائة سنة لم يكن لتلك البلاد الواحدة الارزاء لغة واحدة ولم يكن اهالي سكسونية ووستفالية وبافارية يههون بعضهم بعضاً لان الآداب لم تكن بعد عمت في تلك الاقطار. ولكن بعد ان انتشرت (وكان بدء انتشارها ترجمة لوثيروس للكتاب المقدس والبروتستان مجمعون على قراءته) واخذ الادباء والكتاب يضبطون اللغة ويحققونها بفتح المدارس ونشر الكتب والجرائد والمجلات تحققت اللغة الالمانية وثبتت وتحلت بالقصاحة وعمت البلاد

comme des organismes, analogues à des végétaux, à des êtres apparaissant un jour à l'existence, poussant tantôt un organe, tantôt un autre, dépérissant en partie ou en totalité et finissant par succomber. (id. p. 95)

الالمانية فيهنهما الجميع . ولا خطر عليها ان تعود الى اللغة العامية
لا بل متى عمت اللغة الفصيحة في الأمة فانها تبيد كل اللغات الخصوصية وقيمتها
سواء . كان في فرنسا ام في المانية ام في غيرها من الممالك . وقد اثبت ذلك الكاتب
البلجيكي الذي اشرفنا اليه ١١

ولنا مثال آخر في اللغة العربية وهي من اثبت اللغات فانها في العصر الجاهلي كانت
تختلف معاني كثير من الفاظها باختلاف القبائل . ومن هنا اتى تعدد الفاظ الازداد
والمترادفات والمعاني المتباينة في اللفظة ذاتها والغير المتفقة مع معنى اللفظة الاصلي
الامر الذي يحيرنا لدى مطالعتنا الاثبات اللغوية . ولكن بعد ان كتب القرآن
(والمسلمون دائبون في تلاوته في كل الاقطار) وبعد ان اخذ العلماء يفترونه
وانتشرت الكتب في الحديث . وكتب كثيرون في التاريخ ووصف الارض
والطب والرياضيات وغيرها من العلوم وضبطت قواعد العربية وانشئت المدارس
وشاعت المخطوطات ثبتت العربية كما يثبت البناء المشيد بالحجارة والكلس . فنهم
اليوم كتباً ألقت من الف ومانتي سنة . وانشاء هذه المؤلفات لا يختلف عن انشاء
كتبة عصرنا فيكتب اديابنا اليوم كما كتب العرب لفائدة العامة في جزيرة العرب
والبلاد الشامية وبلاد بين النهرين وفارس ومصر وتونس والجزائر وراكش وطرابلس
والقرب . ويتكلم اديابنا كما يتكلم اولئك مع اختلاف يسير في اللهجة واستعمال

1) Malgré le regain de sympathies dont profitent certains patois, on constate qu'ils sont en train de disparaître devant l'influence du français officiel et littéraire. Cette décadence constitue encore un trait commun aux dialectes ; dans tout pays civilisé, avons-nous dit, les patois succombent tôt ou tard. On les délaisse de plus en plus ; les générations nouvelles les dédaignent ; le peuple seul et les populations écartées les conservent, jusqu'à ce qu'ils cèdent la place à une langue unique. De nos jours, cette substitution s'effectue avec une rapidité beaucoup plus grande qu'autrefois : en effet, les relations de province à province deviennent plus faciles ; l'instruction se répand davantage, grâce à l'école, aux livres, à la caserne, et surtout aux journaux populaires. (p. 102)

بعض الالفاظ الخاصّة وهذا لا يذمّ منه في اقطار تمتدّ من بلاد فارس الى صعيد مصر ومن عمان الى الاندلس . فاذا قام اليوم من يتكهن بالخطاط العربية القصيدة واندثارها وتعلّب اللغة العامية عليها لا احد يلتفت اليه او يصغي الى اقواله بل يهزّ عطفه متبسّاً ويقول : سراب برية واضمحَل .
ولكن اسمع يا وعاك الله البراهين التي يدعم بها حضرة الكاتب مراده . قال باناره الله :

« ما نحن نثبت ذلك بأجل البراهين . قلنا ان حياة اللغة تتكيّف بشكيت حياة الشعب الناطق بها . فانّ هذه الحياة الشعبية في تغير دائم لا ثبات له . وان كلّ شعب يتقدّم او يتخفّر في الحضارة ويكثر او يقلّ من علاقته بآثر الشعوب ويتشدّد بالسلم او تتجلى قواه بالحروب من مثل الحرب الكونية الاخيرة . وهناك ايضاً الوف من العوامل التي تحدث تغييراً مستمراً في ضروب احواله . فضلاً عن أنّ افراد الشعب تتغير ايضاً على تتابع الاجيال وعلى هذا التغير تتغير الاعضاء الصوتية فينتج عنه تأثير تدريجي في التلفظ بلسان الشعب . نعم ان كل جزء من هذه التغيرات الطارئة على اللغة الاصلية هو وحده وبذاته لا يكاد يحسب لكن توأصل هذه التغيرات الكبيرة ولو سزنية ليس اللغة الاصلية بعد بضعة اعصر صرورة جديدة ينتج عنها
تغيير في اللغة الحديثة (ص ١٨٨-١٨٩)

نسمع بهذه ولا نرى طحناً . فاي تغيير احدثت في اسغة الفرنسية ام الالمانية ام العربية الجرب الكونية وجرب سنة السبعين وحوادث عديدة طرأت على العالم واري برهان جليّ يستنتج من كل ذلك لتبيان تعلّب اللغة العامية على القصيدة . وما هي الوف العوامل وكثرة الحوادث المؤثرة في تغيير اللغة . فقل لي بحقك ما هذه التغيرات العديدة التي يجدها السليم او الحرب او هل يؤثر اختلاف الاعضاء والاقطار الصوتية في كيان الالفاظ . واذا تغيّرت لهجة النطق بالكلمة هل يتغير جوهر الكلمة او معناها

فهذه اللغة الفرنسية قد مرّ على الشعب الذي يتكلّم بها احوال وحوادث مختلفة لم تمرّ على احد من الشعوب منذ ثلاثمائة سنة فلا احد يقول ان اللغة الفرنسية انحطّت وتحولت الى لغة عامية بل الجميع يقولون انها ترقّت وتحسّنت رغماً عنّا امتزج بها وهضمّت من الالفاظ الدخيلة من لغات مختلفة لحاجات علمية وفنية وتجارية وحربية . وهكذا القول عن العربية بعد ان مرّ على ترقيا الف ومائتا سنة

ان الذي خدع حضرة الكاتب هو استعمال العامة مع توالي الزمان الفاظاً دخيلة .
 فنظن ان الدخيل يجعل اللغة الفصيحة عامية . وهذا مما لا نلزم به . فهذه اللغة الفرنسية
 مثلاً فانها لغة فصيحة لها قواعدها وشواذها وكتائبها ومولقاتها وهي من اوضح وارق
 اللغات . ومع ذلك لا تأنف من اقتباس الفاظ جديدة من اللغات اليونانية واللاتينية
 والانكليزية والالمانية والايطالية ومن العربية ايضاً يرضى بها الادباء وتصادق على
 استعمالها جمعية الآداب ولا احد يقول ان اللغة الفرنسية تحولت لهذا السبب الى عامية .
 وهكذا القول عن العربية . ولا نمني بالدخيل كل لفظة اجنبية تستعملها العامة لجلها
 ما يقابلها في العربية كما فعلت العامة في وقت الحرب عندما استعملوا اللفظة « دُبيه »
 (dépôt) للمكان الذي جمعوا فيه من يُساق الى المسكر (١) بل نفي الالفاظ المحتاجة
 اليها اللغة ويستعملها الادباء بتواطؤ لانهم لم يجدوا ما يقابلها في العربية او لم يقدروا
 على تحت لفظة لها من جذر لفظة عربية تزدي معناها . فهو لا العلماء المشهورون بتأليفهم
 الذين كتبوا في العربية من عصور عديدة قد ادخلوا في اللغة الفصيحة الفاظاً عديدة
 اقتبسوها من اليونانية كاسطرلاب . ومن السريانية كقرقور لنوع من السفن . ومن
 الفارسية كمسكر وفرسخ الخ . فلم يقم احد في زمانهم او بعدهم ليلومهم ويتهمهم
 بانهم جعلوا اللغة عامية

وكان حضرة الكاتب يعتقد ان الالفاظ الاجنبية تدخل في العربية كل سنة
 بالئات والالوف فتحوّل اللغة العربية من هيئة الى هيئة . فهذا قد مضى على الشب
 العربي اكثر من خمسين سنة يعيش الفرنج بين ظهرانهم وينتقل كثير منهم الى البلاد
 الاوربية والاميركية . فليُحص لنا حضرة اللغات من الالفاظ الاجنبية التي ادخلوها
 في العربية فأثرت في فصاحة اللغة . فهذه مجلات المقتطف والهلل والشرق وجرائد
 الاهرام والمقطم ولسان الحال والبشير وغيرها من المجلات والجرائد المعتبرة والمنشرة
 في البلاد العربية والتي يطالعها الجميع من متأديين وعامة . فان محوري هذه النشرات
 يتناولون جميع المواضيع التي يبحث فيها العلماء الاوربيون على اختلاف مرادفها
 ويكتبون عنها . فينشرن بالعربية الفصيحة مقالات ضافية الذبول ريو لقون الكتب
 المستحقة . فلا تستعصي عليهم الالفاظ العربية لتأدية ما يحالغ عقولهم من المساني في
 (١) وقد ماتت هذه اللفظة ولم تحي والادباء يستعصون عنها باللفظة العربية « المستودع »

كافة العلوم القديمة والحديثة من علم الفلسفة والالهيات الى علم الهيئة ووصف الارض والنبات والحيوان. وقد يضطرون نادراً الى اقتباس بعض الالفاظ الاجنبية فيكونها ثوباً عربياً ويخضعونها لقواعد اللغة العربية او يرصعونها في انشائهم كقص يا قوت في خاتم ذهب فلم يعترض احد ليقول ان لغتهم عامية او ان الالفاظ الدخيلة حوت لغتهم الفصيحة الى عامية

ولدينا ملاحظة نبيذ الحضرة كاتب المقالة وهي انه ناقض ذاته بذاته فيما كتب . فقد قال (في الصفحة ١٨٦ السطر ١٣) « لا بد لكل لغة عامية من ان تتحول الى لغة فصيحة بشرط ان يبلغ الشعب الناطق بها درجة من التقدم راقية » . وقال (في السطر ١٢ من الصفحة ١١٢) « تزول اللغة الفصحى وترتقي اللغة العامية الى درجة لغة فصيحة » . وقال (في السطر ١٥ من الصفحة ١٨٦) « ان اللغة الفصحى تترقى ايضاً بترقي التمدن لكنها لا تستطيع مجازاة اللغة العامية في ذلك الترقى » . فقل لي ناشدتك الله يا حضرة الكاتب اين بقي اثر للغة العامية بعد ان تروت الى لغة فصيحة . وكيف يمكنها بعد زوالها كعامية اذا بها اصبحت فصيحة ان تترقي اللغة الى بل تغلب عليها . ان حضرة مبتكر المقالة لا يدرك تمام ما في اللغة الفصحى من النعمة الفصيحة ولا ما هي اللغة الفصحى (ان كان حضرة يدرك ما هي اللغة العامية استدرج غشله ومغالطته . فكان يلزمه بادى بد ان يتبين ما هي اللغة العامية والفصيحة والفصحى . فلو كان حددها في عقله وفهم ماهيتها لما كان اقدم على كتابة ما كتب . لكنه اقتبس بعض افكار كاشباح لاحت له في غلس الظلام فجمعها وألفها كما يروم المصور المازح الماخن فيضم رأس رجل ذي حية الى عنق فارس ويكسو بالريش الاعضاء المختلفة وينهي الصورة بنجم سمكة فيكون المجموع صورة مسخ

وما قولك في ما كتبه حضرة المنتصر للغة العامية اذ قال (ص ٢١١) :
« لو فرضنا وهذا حال أن مبدع جميع ادباء العصر لمقاومة قضيتنا فنقول ولا نبالغ ان هذه القضية في حد ذاتها لصعبة وان دخولها في حيز الوجود سيلقي امام الشعب اللبناني اي ٩٥ من المائة فيه اعظم رواج واشد فلاح »

« ونضيف على ذلك ونقول اتنا في غير حاجة الى من يؤيد رأينا هذا فان في هذه البلاد كما قلنا آلافاً من ابناء لبنان يضورون جوعاً الى آداب راقية قريبة المثال عذبة اللفظ مكتوبة بلنتهم وجميع هذه الشروط لا تجتمع الا في اللغة العامية التي نحن اول انصارها لا بالكلام الفارغ بل بامتثال البراهين التاريخية والنظرية والفلسفية »

ينتصب حضرته لحاربة ادياب العصر (١) ولا يرتب من ثيل الظفر على الجميع .
ولكن كم من غازٍ أمل الكسب والمجد ولم يجد إلا الحارة والاحد كقول الاخطل :
ويا رب غازٍ وهو يرّجس إبابه . وسرف بلاقي دون أدبٍ شغل

وما الطف التهمة التي يتهم بها الشعب اللبناني . لكن نسأله متى تحقّق حضرته
ان الشعب اللبناني لا يفهم إلا ما يكتب باللغة العامية . فهذا الانجيل الشريف الذي
يُتلى يومياً على مسامع الشعب فيفهمون كل معانيه بألغة العامية كُتب ام باللغة
الفصيحة اي المهدّبة . وهكذا القول عن كل الكتب التي طُبعت الى الآن لمنفعة
الشعب وانتشرت في جميع الاقطار . وهذا مقالته عن اللغة العامية للمتأدّبين كتبها
ام للامة ايضاً لتفهمها وتعمل بموجبها وتشكر المتصر لها ؟ . فقرأه كتبها باللغة الفصيحة
والفصحى فلماذا ينادي بأنّ العامة لا تفهمها ؟

فاذا كان الخدع حضرته بكتاب فيانوس المكتوب باللغة العامية فيعلم ان
هذا الكتاب وُضع لغاية خصوصية توخاها مؤلفه فأفاد وأجاد . اما صاحبنا كاتب
المقالة عن اللغة العامية فانه تحدّث تعميم المبدأ وتوسيع الطريق وإزام الجميع على السلك
فيه فاضر واساء . فلو كان اقتصر على اتباع طريقة فيانوس ووضع بعض الكتب
باللغة العامية ليعلم الآداب او ليصف الاخلاق بطريقة هزلية لما كنّا نترضاه بل
كنّا نقرظنا كتابه ومدحتاه . ولا يخفى احدًا ان اللغة العامية لا تليق بكل المواضيع
فان معظمها يتطلب الميية والوقار

فاذا كان يرغب حضرته ان يقيت التضرّرين جوعاً الى الآداب الراقية فليقدّم لهم
خبز الحنطة لا الزوان وليكتب لهم باللغة المهدّبة مقالات وروايات لذيذة كالتي
حرّرها في السنين الماضية في رسالة قاب يسوع فيتم افتنون على قراءتها ولا تهافت الجلياع
على الطعام اللذيذ . والسلام على من اتبع الهدى

(١) « لقد كان من ضيقنا أن شهدنا تدرّج الارتقاء الادبي في هذا القطر كما أننا في مشهد
كبير وجماعة العلماء والادباء يملّون امامنا بما ترجموه وألّفوه وحرّروه كتباً ورسائل ومقالات
فاذا هي مثل هرم كبير رأسه في الخيض وقاعدته في الارج واسعة منبتة تتناول كل موضوع
نظري وعلمي من اعلى مذاهب الفلسفة الى ما يختص بزراع الحبوب وتربية المواشي » (المقتطف
العدد الاول من السنة ١٩٢٥ الصفحة ٣٩) فعذرة المحوري . اردون غنم يريد ان يتزل بنا من
الارج الى الخيض . وهذا عملاً لا يقدر عليه ولن ينسى له